منظور مالك بن نبي في تناول المشكلة التربوية في العالم الإسلامي.

نحو تأهيل الإنسان المسلم لاستئناف وظيفته التاريخية

د/ عمر نقيب

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة ــ الجزائر

الملخص

إنّ أعمال مالك بن نبي الفكرية تميّزت بمساهمته الجادّة في صياغة رؤية منهجية متميّزة لتناول المشكلة التربوية في العالم الإسلامي وعلاجها. إنّ هذا التميّز عن كثير من محاولات الإصلاح والنهوض والبناء في العالم الإسلامي برز بوضوح عندما أكّد أن المشكلة الإسلامية مشكلة حضارية في طبيعتها وتربوية في جوهرها، وذلك بالنظر إلى مركزية العامل الإنساني فيها.
وبناء على هذا، فقد اعتبر أنّ أيّة محاولة للتعاطي مع "المشكلة الإسلامية" خارج هذا المنظور لن يكون إلاّ شكلاً من أشكال تضييع الجهد والوقت والمال. بل إنّ فشل مختلف محاولات استئصال العالم الإسلامي من وضعية التيه الحضاري المستديم إنّما هو مؤشّر قوي على أهمية مراعاة هذا المنظور وضرورته.

وإنّ قراءة فكره وبالتركيز على أفكاره التربوية قد مكّنتنا من التوصل إلى خلاصة مفادها أنّه تناول التربية من جوانب عدّة أي، التربية كمشكلة (Problem) والتربية كمفهوم (Concept) والتربية كعملية (Process). وعلى الرغم من تنوع هذه الجوانب إلا أنّها تصب في النهاية في رؤية واحدة وموحّدة لنظرته إلى المشكلة التربوية في العالم الإسلامي. إن هذا المنظور قد المتكامل في التعاطي مع المشكلة التربوية قد يمكّننا من صياغة رؤية متكاملة تمثّل منظور مالك بن نبي للمشكلة التربوية في العالم الإسلامي على شكل مشروع متكامل يمكن أن يستخدم لإعادة تربية الإنسان المسلم من أجل تأهيله لاستئناف دورة حضارية جديدة تحقيقاً لوظيفة الشهود الحضاري القادمة.

<u>إشكالية المقال:</u>

إعادة الاعتبار لفكر مالك بن نبي بحكم أنّ فكره الحضاري لم يستثمر بعد بالشكل المطلوب وأنّه لا زال بكرًا قادرًا على إفادة الأمّة من أجل علاج مختلف الأزمات التي لا زالت تتخبّط فيها؛ وأنّ مختلف الدراسات التي أُنجِزت إلى حد الآن لم تتجاوز حدود الكشف عمّا هو ظاهر من أفكاره، وخاصة ما اشتهر به من آراء حول مشكلات الحضارة والثقافة والتغيير

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاجتماعي[1]. أما المنظور التربوي الحضاري المتكامل فهذا ما لم توفّق إليه بعدُ الدراسات المنجزة إلى حد الآن حول فكر مالك بن نبي.

أهمية المنهج في تناول مشكلات البحث

تناول مالك بن نبي مشكلات الإنسان والمجتمع في بلاد العرب والمسلمين من حيث هي مشكلات حضارة. تمثّل هذا التناول في دراسته التحليلية النقدية للتطور التاريخي لحضارة العالم الإسلامي، متتبّعاً في ذلك الانقلاب الفكري والنفسي الذي طال شخصية الإنسان المسلم بدءأ من وقعة صفّين التي يعتبرها الشرارة التي أطلقت منحنى تراجع الحضارة الإسلامية عبر التاريخ إلى أن تمّ الإعلان الرسمي عن سقوطها في الربع الأوّل من القرن الميلادي الماضي على يد مصطفى كمال أتاتورك. حاول من خلال تحليله هذا إسقاط محدّدات نظريته في تفسير الظاهرة الحضارية على تطور المنحيى البياني للاتجاه الذي اتخّذه التطور التاريخي لدورة الحضارة في العالم الإسلامي. إنّ الهدف من هذا التناول المنهجي هو محاولة الاهتداء إلى العوامل التاريخية التي ساهمت في رسم الاتجاه العام لتراجع المنحنى البياني لحضارة العالم الإسلامي ومن ثم التأكّد من السنن الكونية أو القوانين العامة التي تتحكّم في الصيرورة التاريخية للفعل البشري في تعامله مع تحديات الأنفس والآفاق بعد أن تمّ ضبطها على مستوى النظرية. إنّ ضبط هذه العوامل التاريخية ومن ثمّ السنن التاريخية كان بمثابة المفتاح الذي يمكّنه من فهم وتفسير الظاهرة الحضارية ومشكلاتها، ومن ثم استشراف آفاق الحل لهذه المشكلات. ذلك لأنّ "مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحلّ مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث البشرية، وما لم يتعمّق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدّمها"[2]؛ أي، "المنهج الذي يتناول الحضارة لا على أنّها سلسلة من الأحداث يعطينا التاريخ قصتّها، بل ظاهرة يرشدنا التحليل إلى جوهرها، وربّما يهدينا إلى قانونها أي، سنّة الله فيها" [3].

انطلاقا من هذه الرؤية استخدم مالك بن نبي منهجا محكماً للتحليل النفسي التربوي لشخصية الإنسان المسلم باعتباره نتاج تراكمات عهود الانحطاط والتخلف. إنّ هذا المنهج قد مكّنه بالفعل من تحديد العوامل المركزية لأزمة الحضارة في العالم الإسلامي.

وإذا كان المهتمون بفكر مالك بن نبي قد يتعجّبون من المقاربة التربوية لفكره، فإنّ الرجوع إلى تاريخ العلماء وسيرتهم الذاتية قد يخفِّف من وطأة هذا التعجّب. كما يمكن أن نشير هنا إلى أنّ من أهم أسباب هذا التعجّب هو ما يمكن أن نلاحظه على منهج تعاطي كثير من طلاب العلم والباحثين في فكر مالك بن نبي. غلب على اهتمامهم الأكاديمي التكرار والتقليد أكثر منه الاستقلالية والتجديد. ولعلّ الموضوع الذي أخذ حصّة الأسد في هذه الدراسات هو موضوع الحضارة على حساب غيره من موضوعات الاجتماع والتاريخ والسياسة والاقتصاد والتراجم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمّا التربية فلم نجد من أعارها اهتماماً جادًّا ما عدا من تعرّض لها بشكل سياقي غرَضي. وكأنّ لسان الحال يقول: ما دام من سبقنا قد درج على تناول مالك بن نبي كفيلسوف حضارة واجتماع لا يمكن إذاً التفكير في تناوله خارج هذا المنظور وكأنّي بالقوم ملتزمون بقاعدة "ليس في الإمكان أبدع ممّا كان". غير أنّ الأصل في القضية ليس الموضوع وإنّما المنهج. فمشكلتنا مشكلة المنهج الذي نتناول به فكر مالك بن نبي. إنّ فقدان المنهج فقدان للعلم من أصله وفي أحسن الأحوال يتحوّل العلم إلى معلومات تحفظ وتستظهر في المؤتمرات والندوات وتنشر في الكتب والجرائد والمجلات.

وإنّ ممّا ينبغي أن يذكر في هذا السياق أنّ للعلم ركيزتين أساسيتين لابد له منهما حتّى يكون علماً، الموضوع والمنهج. فإذا غاب أحدهما أو كلاهما لم يكن هناك ثمّة علمٍ يذكر وإنّما هو كلام يقال أو يكتب أويُقرأ. من هنا، كان المنهج الذي يعتمد على التشخيص العلمي المحكم والدقيق هو صمام الأمان للتعامل السليم مع المشكلة، موضوع الدراسة، فهماً وتحليلاً وتفسيراً وعلاجاً. كما أنّ الخطأ في هذا المجال مدعاة لتمادي المرض وتوسع مضاعفاته وظهور أعراض أخرى لم تكن لِتُوجَد لولا الفشل الذي حدث في التشخيص. وإذا كنّا بصدد التفكير في مواجهة مشكلة الإنسان فإنّ نقطة الانطلاق في التعامل معه من أجل علاج مشكلاته يكون من الفهم الصحيح لطبيعة المشكلة وأسبابها وتداعياتها وآثارها. وانطلاقاً من هذه الزاوية بالذات حمل مالك بن نبي همّ تنبيه طلائع المسلمين من علماء وحكّام ومفكّرين إلى أهمية المنهج في التعاطي مع المشكلات التي تفرض نفسها على العالم الإسلامي منذ أن اكتملت دور ته الحضاريّ وتوقّف العقل المسلم عن العطاء الحضاري المؤدّي إلى المساهمة في صناعة التاريخ أو على الأقل توجيهه ومحاولة الاستفادة منه. بل كان يهدف إلى إعادة صياغة العقل المسلم بالشكل الذي يؤهّله للتفكير المنهجي انطلاقاً من رؤية واقعية ومتكاملة لكل شيء. ومن اجل أي يزيد المسألة توضيحاً، يشير مالك بن نبي إلى أنّ من بين أهم خصائص إنسان التخلّف، باعتباره عنوان عهود الانحطاط والتخلّف في العالم الإسلامي، العجز عن التفكير المنهجي الذي يفضي إلى النظر الصحيح في المشكلات وإمكانيات علاجها . وبحكم ذلك، فإنّ من أمثلة اهتمامه بالمنهج في إنجاز الدراسات الأكاديمية الجادة أنّ من أهم ما توصّل إليه تحليلُه النقدي لمحاولات النهوض في العالم الإسلامي، أنّ تلك المحاولات اتّسمت بنوع من العجز عن التفكير المنهجي. فبالنسبة إليه، لم يكن أغلب هؤلاء قادرين على استئصال الطرق التقليدية في التفكير التي ورثوها من قرون الانحطاط والتخلّف. كما أنّهم عجزوا عن إقامة مشاريعهم الإصلاحية على أساس طرق أو أساليب حديثة في التفكير والمنسجمة مع طبيعة المشكلات الواقعية التي كانوا يواجهونها.

ولهذا، فالتفكير المنهجي المنظّم ذو الرؤية النسَقية الشاملة هو الضامن لذلك، وأنّ غيابه مدعاة للانحراف عن طبيعة المشكلة أو تحريف طبيعتها، الأمر الذي يجعل الناظر فيها مجانِباً

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للنظر الصحيح للمشكلة وإمكانيات علاجها. ولذلك، فهذا النوع من الغياب المنهجي هو الذي أنتج هذا النظر السقيم أو الجزئي أو المجزّأ لمشكلات المسلمين ودفع قيادات ومنظّري محاولات النهوض علماء وحكّاماً، فضلاً عن عامة المسلمين إلى قضاء عقود من تاريخ ما بعد الاستقلال في علاج أعراض المشكلات بدل المشكلات ذاتها، وفي ذهول تام عن حقيقتها فكان أن جنينا مزيداً من إهدار للأموال والجهود والأوقات بل وأجيالاً كاملةً لم تنعم بعد بثمرة الاستقلال كما كانت تتصوّرها أيام الاحتلال. ولعلّ من أهم ما ردّ مالك بن نبي إليه عجز المسلمين عن التناول المنهجي المحكم لمشكلاتهم فهمًا وعلاجاً هو ما أصاب عقل مسلم مل بعد الموحدين من صفة الذرية (Atomism) من حيث أنّها "طراز من طُرز العقل الإنساني عامة عندما يقصر عن بلوغ درجة من التطور والنضج أو عندما يفوّتها فينزع إلى تجزئة مشكلات الحياة فيتناولها ذرة ذرة"[4]. إذ أصبح العقل المسلم بسبب ذلك يُظهِر عجزا تامّاً عن لَمْلَمَةِ أطراف المشكلات التي يواجهها وأعراضها وأسبابها وتداعياتها وآثارها وعن "عَقْلَنَتِها" ليتمكّن بعد ذلك من فهمها فهماً يضع كل شيءٍ في موضعه على شكل منظور متكامل (Integrated Approach) يستوعب طبيعة المشكلات وأبعادها وعواملها وآثارها وكذا النظر في إمكانيات علاجها. منظور متكامل ومتوازن يكون في مستوى ضمان منطقية النظر إلى المشكلات وترتيبها وتصنيفها حسب أهميتها ليتمّ تناول كلٍّ على حدة بالشكل الذي يناسب طبية المشكلة ذاتها فلا يقع في التقديم أو التأخير، التضخيم أو التقزيم إذا لم تتطلّب ذلك طبيعة المنهج وشروط العمل به.

كما تشير صياغته لمجمل مشكلات العالم الإسلامي تحت عنوان "المشكلة الإسلامية" إلى أهمية المنهج في تناول المشكلات وعلاجها. وأعني بالمنهج هنا التفكير المنهجي المنضبط بقوانين العلم والمفضي إلى الفهم الصحيح للمشكلة كما هي في الواقع لا كما يتصوّرها الباحث، مع القدرة على التمييز الدقيق بين مختلف عناصر المشكلة من حيث هي كلٌّ يتضمّن الأسباب والعوامل، والأعراض والمظاهر، والآثار والعواقب؛ بالإضافة إلى النظر الثاقب إلى الإمكانيات المتاحة للعلاج والحل المرتبط ضرورةً بطبيعة المشكلة في ضوء قانون الإمكان الحضاري والإرادة الحضارية الذي بسطه في مواضع مختلفة من أعماله الفكرية.

منظور مالك بن نبي في تناول مشكلات الحضارة في العالم الإسلامي.

أغلب الدراسات التي أنجزت حول فكر الأستاذ مالك بن نبي إنّما افتقدت في أغلب الأحيان التحليل المنهجي المعمّق[5] الذي من شأنه المساهمة في التعريف بحقيقة المنظور الفكري المتكامل الذي اقترحه مالك بن نبي للنظر في مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في العالم الإسلامي وعلاجها. ولقد اتّخذت هذه الدراسات على وجه العموم مَنْحَى التعرّف والتعريف على الشخص والفكرة أكثر من الاهتمام بالصياغة المفاهيمية (Conceptualization) للأفكار

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وللمنهج الذي تناول هذه الأفكار على شكل مشروع متكامل يمكن الاعتماد عليه في علاج مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في بلاد العرب والمسلمين. ولعل من أهم أسباب ذلك أنّ فكر مالك بن نبي كان سابقًا لزمانه؛ إذ لم يكن في وسع النخبة المثقّفة التي عاصرته فضلا عن غيرها التي أعقبته فهم واستيعاب منظوره المنهجي والفكري في تناول مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة. هذا المنظور الذي بدا عند الكثير من أهل الفكر ناهيك عن طلاب العلم المبتدئين صعب المنال [6]. ونتيجة لذلك، فقد شكل ذلك المناخ حاجزًا بين مالك بن نبي وقبول أفكاره وآرائه الإصلاحية لدى مختلف شرائح المجتمع.

تكمن الرؤية المنهجية لمالك بن نبي في المنظور الحضاري المتكامل الذي يأخذ بعين الاعتبار مركزية العامل الإنساني فيها وأنّ إعادة الصياغة التربوية لشخصية الإنسان المسلم هي نقطة الانطلاق في علاج المشكلة الحضارية برمّتها.

إن أهم ما توصّلت إليه دراستنا لفكر مالك بن نبي هو أنّ أعماله الفكرية تميّزت بمساهمته الجادّة في صياغة رؤية منهجية متميّزة لتناول المشكلة التربوية في العالم الإسلامي وعلاجها. إنّ هذا التميّز عن كثير من محاولات الإصلاح والنهوض والبناء في العالم الإسلامي برز بوضوح عندما أكّد أن المشكلة الإسلامية مشكلة حضارية في طبيعتها وتربوية في جوهرها، وذلك بالنظر إلى مركزية العامل الإنساني فيها. وبناء على هذا، فقد اعتبر أنّ أيّة محاولة للتعاطي مع المشكلة الإسلامية خارج هذا المنظور لن يكون إلاّ شكلاً من أشكال تضييع الجهد والوقت والمال. بل إنّ فشل مختلف محاولات استئصال العالم الإسلامي من وضعية التيه الحضاري المستديم إنّما هو مؤشّر قوي على أهمية مراعاة هذا المنظور ضرورته.

إنّ الحديث عن طبيعة المنظور الفكري الذي يجب على المجتمع أن يتبنّاه لتربية أجياله يدفعنا للتذكير بما أثاره مالك بن نبي عندما أشار إلى طبيعة مشكلة الثقافة عندما أكّد أنّنا في العالم الإسلامي لا نواجه مشكلة فهم لنموذج ثقافي موجود بالفعل كما هو الشأن في بلاد الغرب، وإنما نواجه مشكلة ترقية ثقافة جديدة تمكّننا من تأهيل الإنسان المسلم لاستئناف وظيفته التاريخية في العالم. وبسبب العلاقة العضوية الكائنة بين كل من التربية والثقافة والحضارة فإنّ نفس المنهج يفرض نفسه علينا لتناول مشكلة التربية ومن ثم الحضارة. والسبب في ذلك هو أنّ النموذج التربوي المنشود عندنا ليس موجودا بالفعل كما هو الشأن عند الغرب؛ وإنّما هو موجود بالقوة في عالم أفكارنا المستوحى أساسًا من الوحي الأعلى. ولهذا، فالأصل الذي ينبغي أن ننطلق منه للتعاطي مع مشكلاتنا التربوية وغيرها هو المنظور الثاني أي، التربية كعملية تكييف بحيث ينصب اهتمام الجهود التربوية التي يبذلها آباء الشعب ومربّوه على إعداد الأجيال الصاعدة على تمثّل النموذج التربوي المنشود وتجسيده في مختلف نواحي النشاط البشري

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للمجتمع أي، نقله من وضعية الوجود بالقوة إلى وضعية الوجود بالفعل لتمكين المجتمع، من ثم، من أداء وظيفته التاريخية والاستمرار الإيجابي والفعّال في التاريخ . ولهذا، فإنّ هذا المنظور المتميّز كان يستهدف ترقية ثقافة جديدة تكون الأساس لبناء حضارة وفقًا لقانون السنن التي أودعها الخالق عزّ وجلّ في الأنفس والآفاق بعيدًا عن الحسابات الظرفية السياسية منها أو الفكرية أو الاجتماعية التي تتعامل مع المشكلة بناء على مبدأ التكيّف (Accommodation) لا التكييف (Adaptation)

إنّ هذا المنظور المتكامل الذي تبنّاه مالك بن نبي في التعاطي مع مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في العالم الإسلامي قد ميّزه عن مختلف المفكّرين الذين انصبت اهتماماتهم الفكرية على نفس المشكلات. وإنّ هذا التميّز يرجع أساسًا إلى طبيعة المنهج الذي اتّبعه والقضايا التي تطرّق إليها عند تناوله لمشكلات العالم الإسلامي وبشكل خاص صياغته لما عُرِف في أدبياته بالمشكلة الإسلامية (The Islamic Problem) عندما سلّط الضوء على طبيعتها الحضارية وأبعادها التربوية. إنّ هذا المنظور المتميّز يمكن اعتباره في نظر هذه الدراسة نقلة نوعية على طريق تأصيل مناهج الفكر في النظر والتعاطي مع المشكلات والذي نعتبره في ذاته لبنةً أساسية متميّزة وذات وزن خاص من لبنات مشروع إعادة تشكيل العقل المسلم من أجل تأهيله لاستئناف وظيفته الطبيعية في الحياة البشرية. ولعلّ السر في هذا التميّز أيضًا أن مختلف محاولات النهوض والإصلاح والبناء التي سبقت محاولة مالك بن نبي أو تزامنت معها لم توفَّق في قضية المنهج وما يتطلّبه من الآليات الفكرية التي تساعد على الصياغة المنهجية الدقيقة لمشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة وفقًا لقانون السنن الذي أصّله العلامة عبد الرحمن ابن خلدون في نظريته للدولة وفرّعه مفكّرنا مالك بن نبي وتوسّع فيه في نظريته للحضارة .

هذا المنظور إنّما اتّخذه مالك بن نبي لتجاوز تلك المقاربات الجزئية والتجزيئية للمشكلات التي تواجهنا في العالم الإسلامي نتيجة لعقلية الذرية التي غلبت على العقل مسلم ما بعد الموحّدين؛ وكدلالةٍ على عجز العقل المسلم عن صياغة المشكلات بطريقة منهجية محكمة تتوفّر على أعلى مستويات النظر المنهجي الشمولي المتكامل، والقادر على الربط بين المشكلة وعناصرها من حيث هي أسباب وأعراض وآثار وآفاق الحل والعلاج.

ومن وجهة نظر هذه الدراسة، إنّ مثل هذا المنظور من شأنه تجاوز النظرة الجزئية التجزيئية لمشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في العالم الإسلامي. هذه النظرة التي تعكس في حقيقة الأمر عجز العقل المسلم عن صياغة مشكلاته بطريقة منهجية وشمولية.

علاقة التربية بالحضارة عند مالك بن نبي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولقد قام مالك بن نبي بصياغة مفهوم التربية على أنّه مشروع متكامل لتحضير (من الحضارة) الإنسان وتأهليه للمساهمة في بناء المجتمع التاريخي المتحضّر؛ بحيث تضمّن هذا التعريف الموضوع والأداة والهدف والوجهة النهائية للمشروع. فيقول مثلاً:

"ليست التربية مجموعة من القواعد والمفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، على عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء. وليست هي من إنتاج المتعالمين وبحار العلوم، الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم، دون أن يلمّوا بما تترجِم عنه هذه الكلمات من وقائع، خيراً كانت أم شرّاً... بل هي وسيلة فعّالة لتغيير الإنسان، وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكوِّن معهم مجموعة القوى التي تغيّر شرائط الوجود نحو الأحسن دائماً، وكيف يكوِّن معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤديَ نشاطه المشترك في التاريخ"[7].

وبهذا التعريف يكون مالك بن نبي قد ربط ربطا عضويا بين التربية والحضارة. إذ بالنسبة إليه إذا أُفرِغت التربية من البعد الحضاري فقَدْ فَقَدَتْ حينئذٍ مبررات وجودها وشروط استمرارها. ولهذا، فقد أشار في تعريفه للحضارة إلى نفس المعاني بقوله إنّ:

"معنى التحضّر أن يتعلّم الإنسان كيف يعيش مع غيره في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسة لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية"[8].

وباستعراض هذين التعريفين لكل من التربية والحضارة تتبيّن لنا العلاقة العضوية بين المفهومين في نظر مالك بن نبي. وبالفعل، فهي علاقة وثيقة وعضوية بشكل لا يمكن تناول الواحد منهما بمعزل عن الآخر[9]. فهما يمثلان وجهان لحقيقة واحدة وإن كانت التربية تمثّل دور الأداة التي من خلالها تتحقق معاني الحضارة والتحضّر في حياة الإنسان والمجتمع، بينما الحضارة تمثِّل مبرر وجود التربية ومنتوجها في ذات الوقت أيضاً. ولهذه الاعتبارات، يرى مالك بن نبي أنّ المشكلة الحضارية عندنا في جوهرها مشكلة تربوية وأنّ منطلق العلاج إنّما يبدأ بإعادة الصياغة التربوية لشخصية الإنسان المسلم من أجل تحضيره (من الحضارة) لأنّ الإنسان المتحضّر هو المخلوق الوحيد على وجه الأرض المؤهّل لإنتاج الحضارة وأنّ هذه الأخيرة لا يبنيها نموذج الفرد الذي يحمل في شخصيته وراثات التخلف والانحطاط والفشل ومختلف مظاهر الكسل الفكري والنفسي والعجز عن الاجتهاد، كما عن الفعل المنهجي الفعّال والمؤثِّر في المسار التاريخي للمجتمع، وإنّما الفرد الذي تمّ تكييف طاقته الحيوية وفقاً لقانون الروح فانقلبت إلى طاقة اجتماعية تبني وتعمِّر، كما سنتبيّن لاحقاً.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من هنا، يتجلّى البعد الحضاري كبعد أساس في مفهوم التربية عند مالك بن نبي. كما أنّه يصبح لزاماً على أية محاولة تروم إصلاح أوضاع الإنسان في البلاد الإسلامية أن تلتفت إلى هذا البعد وإلاّ كان مآل هذه المحاولة الفشل. ولن يُجنى منها إلا ضياع الأموال والأوقات والجهود. ولعلّ التفاتة سريعة إلى مختلف المحاولات على استهدفت إعادة البناء لمجتمعات ما بعد الاستقلال في العالم الإسلامي تزيد في ترسيخ هذه القناعة التي تفطّن لها مالك بن نبي في مرحلة كانت لا تزال أغلب بلاد الإسلام تحت سيطرة قوى الاستعمار فَسَبَقَ بها زمانه كما سبقه أيضاً في قضايا أخرى كثيرة مثل فكرة العولمة التي أشار إليها بتعبير العالمية.

التربية كمشكلة

يعتبر مالك بن نبي الإنسانَ العاملَ المركزي لمشكلات الحضارة في العالم الإسلامي لأنّه يرى أنّه "من الرجل تتبع المشكلة الإسلامية بأكملها وخاصة في الجزائر" [10]؛ وأنّنا –نحن المسلمون– "لا نواجه تغيّرًا في النظام السياسي، بل إنّ التغيّر يصيب الإنسان ذاته، الإنسان المتحضّر الذي فقد هِمّتهُ المحضِّرة، وليس من الصواب أن نبحث عن النظم، بل عن العوامل الإنسانية المتمثِّلة في عجز الناس عن تطبيق مواهبهم الخاصة على التراب والوقت. إنّ التركيب الأساسي نفسه قد تحلّل، فتحلّلت معه الحياة، وأخلت مكانها للحياة البدائية" [11].

وعلى الرغم من أنّ هذه الرؤية تمثّل النتيجة التي توصّل إليها مالك بن نبي من خلال دراسته التحليلية النقدية للتطور التاريخي لحضارة العالم الإسلامي، فإنّها تلخّص أيضًا صياغته للمشكلة التربوية كما تواجهنا في عالمنا الإسلامي الحديث والمعاصر. ولهذا، فهو يعتبر أنّ الإنسان المسلم المتخلّف باعتباره إنساناً قد تحلّل تركيب شخصيته بعدما أكمل دورته الحضارية هو الأصل في مختلف المشكلات التي تواجهنا في عالمنا الإسلامي. في حين نجد أنّ عدداً من الأطروحات التي أكّدت على كون المؤسسات السياسية هي الأصل في مشكلات العالم الإسلامي، لم تتعامل، حسب مالك بن نبي، مع جوهر المشكلة وحقيقتها وإنّما مع أعراضها ومظاهرها بحكم أنّ الإنسان هو الذي أنتج مثل هذه المؤسسات الفاشلة عن أداء مهامها الاجتماعية في تنمية الحياة البشرية وترقيتها. "فالنقائص التي تعانيها النهضة الآن، يعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن في طليعة التاريخ، فنحن ندين له بمواريثنا الاجتماعية، وبطرائقنا التقليدية التي جرينا عليها في نشاطنا الاجتماعي،... لم يكفِ بأن بلغنا نفسه المريضة التي تخلّقت في جو يشيع فيه الإفلاس الخلقي والاجتماعي والفلسفي والسياسي، فبلغنا ذاته.. وهذا الوجه الكئيب ما زال حيّاً في جيلنا الحاضر، نصادفه في المظهر الرقيق الذي يتميّز به فلاحنا الوديع القاعد، أو راعينا المترحّل، المتقشّف المضياف. كما نصادفه في المظهر الكاذب الذي يتخذه صاحب المليار نصف المتعلّم الذي انطبع في الظاهر بجميع أشكال الحياة الحديثة، فأكسبه مليار أبيه وشهادة البكالوريا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مظهر الإنسان العصري، بينما تحمل أخلاقه وميوله وأفكاره صورة إنسان ما بعد الموحّدين [12].
ولهذا، فإنسان ما بعد الموحّدين المتخلّف هو في الحقيقة تجسيد للقابلية للاستعمار والوجه النموذجي للعهد الاستعماري والبهلوان الذي أسند إليه المستعمِر القيام بدور المستعمَر وهو أهلٌ لَأن يقوم بجميع الأدوار، وحتى لو اقتضاه الأمر أن يقوم بدور إمبراطور [13].

ويعترف مالك بن نبي أنّ المشكلة معقّدة وليست من السهولة كما يظن الكثير من المسلمين، وإنّما تتطلب جهدا استثنائيا لأنّ "معرفة إنسان الحضارة وإعداده أشق كثيراً من صنع محرّك أو ترويض قرد على استخدام رباط العنق" [14]. إنّ هذا الوضع المرَضي المتأزّم لشخصية الإنسان المسلم لم يكتف بكونه ظاهرة فردية وإنّما اتخذ في الحقيقة شكل ظاهرة اجتماعية طالت المجتمع برمّته، فأصبحت عقلية التخلف هي القاسم المشترك بين أفراد المجتمع وغدت سلوكاً جمعياً، بل أسلوب حياة يمارسه المجتمع.

<u>آفاق علاج المشكلة التربوية في العالم الإسلامي</u>

إنّ القراءة المتأنّية لأعماله الفكرية تقودنا إلى الاعتقاد بأنّ البعد التربوي واحد من أهم الأبعاد التي يتميّز بها منظوره الفكري لتناول مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة. ويرى مالك بن نبي أنّ المشكلة الحضارية عندنا في جوهرها مشكلة تربوية وأنّ منطلق العلاج إنّما يبدأ بإعادة الصياغة التربوية لشخصية الإنسان المسلم من أجل تحضيره (من الحضارة) لأنّ الإنسان المتحضّر هو المخلوق الوحيد على وجه الأرض المؤهّل لإنتاج الحضارة وأنّ هذه الأخيرة لا يبنيها نموذج الفرد الذي يحمل في شخصيته وراثات التخلف والانحطاط والفشل ومختلف مظاهر الكسل الفكري والنفسي والعجز عن الاجتهاد، كما عن الفعل المنهجي الفعّال والمؤثِّر في المسار التاريخي للمجتمع، وإنّما الفرد الذي تمّ تكييف طاقته الحيوية وفقاً لقانون الروح فانقلبت إلى طاقة اجتماعية تبني وتعمِّر .

والنموذج التربوي الذي تسعة غايات التربية وأهدافها إلى تحقيقه في الواقع إنّما هو تصوّر لعلاج للمشكلة التربوية القائمة في الواقع الفعلي للمجتمع، والتي سبق أن تمّت صياغتها كما هي في الواقع. وهذا هو العمل الذي قام به مفكِّرنا مالك بن نبي. ف عند قراءة أعماله الفكرية ونظراً لطبيعة المشكلة الحضارية في العالم الإسلامي وتنوّع أسبابها ومظاهرها وآثارها، فقد تحدّث عن كثير من القضايا التي رأى ضرورة مراعاتها والاهتمام بها والعمل من أجل علاجها.

وإذا كان مالك بن نبي ألحّ على أنّ المشكلة الإسلامية هي الأصل الذي تمخّض عن كل مشكلات المسلمين، وأنّ جوهر هذه المشكلة هو التغيّر الذي أصاب الإنسان المسلم الذي فقد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

همّته المحضِّرة فأعجزه فَقْدُها عن التمثّل والإبداع، فإنّه أكّد أيضاً أن منطلق التفكير في مشكلات المسلمين هو الإنسان المسلم المتخلّف باعتباره "عنصراً جوهرياً فيما يضم العالم الإسلامي من مشكلات منذ أفول حضارته، وهو عنصر لا ينبغي أن يغيب عن أنظارنا عندما ندرس نشأة المشكلات وحلولها التي تشغل اليوم فيما يبدو الضمير الإسلامي" [15]. و"طالما ظل المجتمع الإسلامي عاجزاً عن تصفية الوراثات السلبية لإنسان ما بعد الموحّدين، النفسية منها والاجتماعية والتي أسقطته منذ ستة قرون، ومادام متقاعساً عن تجديد كيان الإنسان طبقا للتعاليم الإسلامية الحقّة ومناهج العلم الحديثة فإنّ سعيه إلى توازن جديد لحياته وتركيب جديد لتاريخه سيكون باطلاً عديم الجدوى"[16].

وإذا كان الإنسان المسلم المتخلّف هو العامل الرئيس لكل ما تعانيه بلاد العرب و المسلمين من مشكلات فإنّ نقطة الانطلاق لعلاج مشكلات الحضارة الإسلامية إنّما هو إعادة صياغة الشخصية الإسلامية بالشكل الذي يؤهّلها لاستئناف وظيفتها في التاريخ بدءًا بنقل الإنسان المسلم من وضعية الإنسان المتخلّف إلى وضعية الإنسان المتحضّر ، وبعبارة أدق، نقل الإنسان من وضعية **الفرد** إلى وضعية **الشخص** ليصبح **الإنسان المتكامل.** ومن أجل توضيح هذه المسألة نؤكّد أنّ مالك بن نبي تناول مفهوم الفرد من زاويتين مختلفتين. والمعيار الأساس للتمييز بينهما هو مدى خضوع الفرد لأي جهد تكييف تربوي يستهدف تغيير وضعيته البدائية التي خُلِق عليها أم لا. وعلى وجه العموم، لا يمكن للإنسان إلا أي يكون في إحدى الوضعيتين؛ إمّا أ ن يكون في وضعية سلبية تتمثّل في ممارسته ل لحياة وهو لا يعلم شيئًا عن الأهداف السامية التي خُلِق من أجلها، بحيث يغلب على هذه الوضعية اهتمام ه بمطالبه العضوية الحيوية التي يشترك فيها مع الحيوان البهيموهذا هو الفرد. وإمّا أيكون في وضعية قد أضْفَت التربيةُ على حياته دلالة تاريخية يتميّز بها عن غيره من المخلوقات وهذا هو الشخص. وفيما يأتي عرض للمفاهيم الثلاثة بشيء من التفصيل.

الفرد الخام

الفرد الخام (Raw Individual) هو تلك الوضعية البدائية التي يكون عليها الكائن الإنساني لحظة ولادته أو قبل خضوعه لأي نوع من أنواع التكييف التربوي الذي يستهدف إعداده للاندماج في الحياة الاجتماعية و تبوّأ موقعه في المجتمع والشروع في القيام بالدور الذي ينسجم مع استعداداته الفطرية ومهاراته المكتسبة. وفي هذه الوضعية يكون الفرد بمثابة المادة الخام الجاهزة "للقولبة" أي، للصياغة حسب غايات المجتمع التربوية وأهدافه. ويوضّح مالك بن نبي هذه الوضعية بقوله أنّ" الطبيعة تأتي بالفرد في حالة بدائية، ثم يتولّى المجتمع تشكيله" [17].
ومعنى ذلك أن الإنسان يواجه الحياة لحظة ميلاده وهو "فرد خام" مفعم ببطاقة حيوية تظهر على

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شكل استعدادات ومواهب وقدرات كامنة تؤهله للقيام بالوظيفة التي خُلِق من أجلها أحسن قيام إذا أُحسِن تكييف هذه الاستعدادات والمواهب من جهة، وتأهيله لهذه الوظيفة من جهة أخرى. وفي هذه الوضعية يكون الدافع الأساس للسلوك البشري هو المحافظة على النوع واستمرار البقاء لا غير. وفي حالة تمادي هذه الوضعية في الحياة البشرية تنقلب حياة الإنسان إلى أشبه ما يكون بحياة البهائم لاشتراكها معها في جعلها محور اهتمامها الاستجابة لمطالب الجسد العضوية ليس إلاّ. وقد تترتّب عن هذا الانحراف من المفاسد في حياة البشر ما يُفرغها من مبررات وجودها باعتبارها حياة ذات رسالة تميّز الوجود البشري عن سائر المخلوقات الأخرى. ومن هنا، تظهر التربية كحاجة إنسانية لا مناص منها للارتفاع بالكائن الإنساني إلى مرتبة الإنسان المكرّم ذي المركز المتميِّز والوظيفة النبيلة في هذا الكون.

الشخص أو الفرد المكيّف.

إنّ هذا المصطلح هو أوّل ما يستخدمه مالك بن نبي للتعبير عن الوضعية الثانية التي يكون عليها الكائن الإنساني ؛ وضعية الإنسان الذي قد تمّ إخضاعه لعملية التربية. ويسمّي الإنسانَ في هذه الحالة الشخص (Person) أو الفرد المكيَّف (Adapted Individual). ومعنى ذلك أنّ الفرد الخام هو الذي لم يخضع لأي نوعٍ من التربية أو باصطلاح مالك بن نبي أي نوع من التكييف والإشراط (Adaptation and Conditioning)، وأمّا الشخص فهو الذي تم إخضاعه لعملية تكييف وإشراط تربويين جعلاه ينتقل من وضعية الفرد الخام البدائي إلى وضعية الفرد المكيف أو الشخص المؤهّل للانتماء والاندماج في المجتمع والمؤهّل للقيام بالأدوار الاجتماعية التي يتطلّبها منه انتماؤه لهذا المجتمع. ويقول موضّحاً هذه الوضعية أنّ العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغيِّر الفرد من كونه فرداً إلى أن يصبح شخصاً وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع [18]. ومن أهم ما يميِّز هذه الوضعية أنّ الحياة البشرية تصبح وقد أُضفِيَ عليها معنى تاريخي يجعلها تتميّز عن تلك التي يتميّز بها الحيوان البهيم بحكم أنّ الإنسان أصبح يدرك معاني وأبعاد الوظيفة التاريخية التي خُلِق من أجلها. وبناءً على ما سبق، فإنّ التمييز بين اصطلاحي الفرد والشخص أمر في غاية الأهمية خاصة في مجال التربية لأنّه هو الذي يحدّد لنا نقطة البدء في العملية التربوية.

الإنسان المتكامل أو إنسان الحضارة.

بعد إنجاز عملية التكييف والإشراط التربويين التي يفترَضُ منها تأهيل الفرد للاندماج في المجتمع واستئناف وظيفته التاريخية، يكون قد استكمل مواصفات الإنسان المتكامل الذي حسب مالك بن نبي هو الذي يبدأ به التاريخ أي الدورة الحضارية الجديدة. فالإنسان المتكامل،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما يؤكّد مالك بن نبي، هو الذي "يسعى دوما للمطابقة بين جهده وبين مَثَلِهِ الأعلى وحاجاته الأساسية، والذي يؤدّي في المجتمع رسالته المزدوجة، بوصفه ممثلاً وشاهدا" [19]. فهو بهذا الاعتبار الغاية القصوى لعملية إعداد الإنسان وتأهيله لوظيفته التاريخية؛ إذ لن يصبح مؤهّلاً لهذه الوظيفة إلا إذا استكمل مواصفات الإنسان المتكامل. ولعلّ أهم ما يمكن الاهتداء إليه من خلال التأمل فيما نقلناه عن مالك بن نبي أمران أساسيان. أمّا أوّلهما فهو قدرته على المطابقة بين المثل الأعلى والجهد. ومعنى ذلك أنّ قضية النموذج التربوي المنشود ليست مطروحة كمشكلة بل كفكرة واضحة تنتظر التطبيق. الأمر الذي يصبح الفرد فيه قادراً على تجسيد معاني هذا النموذج، لكل من الفرد والمجتمع، في حياته العملية كمساهمة لجعل النموذج موجوداً بالفعل لا بالقوة. وأمّا الثاني أي، القيام بوظيفة الشهادة كما أقرّها الوحي وبيّنها السنّة المطهّرة. وهذا في الحقيقة مبني على الأوّل أي، لا يكون الإنسان مؤهّلاً للقيام بوظيفة الشهادة إلا إذا استوفى شروطها. ولعلّ من أهم شروطها أن يكوّن بشخصيته التجسيد العملي لنموذج الإنسان المتكامل. وغنيّ عن البيان أنّ وحدة المجتمع المتحضّر هو الإنسان المتكامل أو الشخص المكيّف.

وهنا نرى من المناسب طرح السؤال التالي على القارئ: ما مدى اهتمام السياسات التربوية في العالم الإسلامي بطرح مشكلة النموذج التربوي المنشود وفقًا لطبيعة الرسالية للأمّة التي ننتمي إليها ومقتضيات الوظيفة التاريخية المنوطة بها؟. وبعبارة أخرى، ما مدى اهتمام منظّري التربية عندنا بمشكلة النموذج التربوي المنشود للفرد باعتباره الإنسان المتكامل المؤهّل للعودة إلى التاريخ والمساهمة في صناعته؟

نتيجة

ولعلّ من أهم النتائج التي نتوصّل إليه من خلال استعراض الوضعيات التربوية والحضارية المختلفة التي يمكن أن يكون عليها الإنسان في مرحلة من مراحل وجوده التاريخي أنّ التنظير لتربية الإنسان وإعداده لمهامه التاريخية ينطلق من النظر في طبيعة المرحلة التاريخية التي يعيشها والوضعية التربوية التي يكون عليها. إذ لا يمكن أن نشرع في تربية إنسان لا ندرك طبيعة الوضعية التي يعيشها. فماذا يكون مبرر وجود العلم إذا لم يكن مشروع تغيير واقع أو الاستعداد لمواجهة متوقّع؛ وهو الذي يفترَض منه أنّه ينطلق من الواقع ثم يعود إليه ليغيّره. فإذا كان النموذج التربوي المنشود هو نقطة النهاية التي تتجه إليها الجهود التربوية من أجل تجسيدها على أرض الواقع، فإنّ النموذج التربوي الموجود هو نقطة البداية التي ننطلق منها لتناول المشكلة التربوية، صياغةً وتحليلاً وتفسيرًا وعلاجًا على طريق تحقيق النموذج المنشود. وفي هذا السياق تطرح مشكلة استعارة الخبرة الأجنبية ومحاولة الاستفادة من تجارب الغير تحت أي مبرّر من المبررات. إذ نجاح تجربة ما في بلد ما لا يعني بالضرورة نجاحها في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

غيرها من البلاد بحكم الشروط النفسية والاجتماعية والخصوصيات الثقافية التي تتحكّم في طبيعة المشكلة التربوية. ولهذا، يكون لزامًا على القائمين على أمر التنظير للتربية عندنا الانتباه إلى هذه القضية وأن اللجوء إلى الخبرة الأجنبية يكون بالتبَع وليس بالأصل لأنّ الأصل هو وأنّ طبيعة المشكلة هي التي تحدِّد طبيعة العلاج ووسائله وأدواته.

صياغة غايات التربية كنموذج لعلاج المشكلة

اتخذ مالك بن نبي منذ البداية صياغة المشكلة التربوية نقطة الانطلاق الأساسية في تحديد الغايات والأهداف التي ينبغي أن يتبنّاها مشروع الإصلاح التربوي الإسلامي. ولقد سبق لنا أن لخّصنا صياغته للمشكلة التربوية أين بينّا تركيزه على العامل البشري واعتبار الإنسان المسلم المتخلّف الذي تحلّل تركيب شخصيته بعدما أكمل دورته الحضارية هو الأصل في مختلف المشكلات التي تواجهنا في العالم الإسلامي؛ وأنّ المشكلة معقّدة وليست من السهولة كما يظن الكثير وإنّما تتطلب جهدا استثنائيا من أجل علاجها. كما أنّ نقطة الانطلاق لاستئناف دورة حضارية إسلامية جديدة تكمن في إعادة الصياغة التربوية لشخصية الإنسان المسلم لتمكينه من الانتقال من وضعية الإنسان المتخلّف، بكل ما يحمل هذا المفهوم من أسباب وأبعاد وآثار، إلى وضعية الإنسان المتحضّر الذي يتمتّع بمؤهّلات الأداء الناجح لوظيفته في التاريخ. وإنّ أية محاولة لإصلاح العالم الإسلامي لن تكون سوى مزيداً من إهدارٍ الجهود والأموال والثروات والوقت إذا لم تقم على أساس مراعاة هذه الحقيقة، مشكلة إعادة الصياغة التربوية لشخصية الإنسان المسلم المتخلّف.

ومن شروط العلاج ضبط استعارة الخبرة التربوية الأجنبية

يعتبر مالك بن نبي قضية الأصالة في النظر والتفكير والتصرّف قضية حاسمة وفي منتهى الأهمية لضمان أحسن الطرق والأساليب للتعامل مع مختلف المشكلات التي يواجهها المجتمع. ولتوضيح هذه القضية ينبِّه إلى أنّ "لمشكلات الإنسان طبيعتها الخاصة، وهي تختلف اختلافاً كلِّيّاً عن مشكلات المادة" [20]. فإذا كان بإمكان مشكلات المادة الخضوع لقانون التعميم باعتبار الاطّراد الذي تتميّز بها قوانينها، فإنّ الأمر خلاف ذلك في مجال مشكلات النفس والمجتمع التي لا يمكن أن تطبّقَ عليها حلول تُستَقى براهينها من خارج المحيط الاجتماعي الذي تولّدت فيه المشكلات ذاتها. فمجال المجتمع، كما يؤكّد مالك، ليس كمجال الميكانيكا؛ وعناصر حلول المشكلات إنّما هي في الحقيقة جزء من المحيط الاجتماعي. ومن الغريب أنّنا في بلاد العرب و المسلمين لا نتفطّن إلى هذه الحقيقة الكونية إلاّ قليلا، إذ "الحلول كلّها مستعارة من بلاد متحضِّرة"[21]. وغالباً ما نجد أنّ الحلول المطبّقة لم تعطِ النتائج المنتظرة. ولعل الواقع التنموي في هذه البلاد بشكل عام يدلّ بوضوح على ذلك. والسبب في هذا الفشل، كما يرى مالك بن نبي، هو

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنّ "في كل مجتمع ناشئ متهيّئ للنهضة عناصر تقليدية إلى جانب العناصر الحديثة، وهي عموماً مستعارة من مجتمعات سابقة في مضمار الحضارة" [22]. غير أنّه لضمان سلامة النقل وفعالية التطبيق، "يبذل المجتمع الناشئ من استعارتها واستيعابها جهداً في التحليل والتكييف، يقتضي منه في الواقع جهداً في الإبداع والتركيب. فهضمُ تلك العناصر وتمثُّلها يقتضي تمييزاً دقيقاً وفكراً ناقداً يقِظاً يحدِّد الشروط التي يجب توافرها في الاستعارات الضرورية، أعني شروط توافقها ونفعها ولياقتها"[23].

وهكذا يضع مالك بن نبي الضوابط العامة والضرورية لأي محاوله لاستعارة خبرة أجنبية في أي مجال من مجالات النشاط البشري كيما نضمن حسن تطبيقها وتحقيق نفعها المنشود. والحقّ أنّ الحلول التي تستعيرها من الخارج لعلاج مشكلات الإنسان أو المجتمع هي صحيحة بل وناجحة في أغلب الأحيان في البلاد أو المحيط الذي نشأت فيه. غير أنّ نجاحها هناك لا يعني بالضرورة صلاحيتها عندنا لعلاج مشكلاتنا. والسبب في ذلك، حسب مالك بن نبي، هو أنّ "الحياة الاجتماعية محكومة بقوانين خاصة، شأنها في ذلك شأن الحياة العضوية. ولهذا، فإنّ المجتمع الناشئ لا يمكنه تمثُّل العناصر الاجتماعية التي يقتبسها إلا بشروط معيّنة" [24]. بينما الأمر الواقع في العالم الإسلامي خلاف ذلك، لأنّ عملية نقل الخبرة الأجنبية لم تخضع للشروط اللازمة. بل كل ما يسود ذلك الواقع من فوضى في الميادين الفكرية والخلقية أو في ميادين السياسة إنّما هو نتيجة ذلك الخليط من الأفكار الميتة الموروثة، تلك البقايا غير المصفّاة، ومن الأفكار المستعارة؛ تلك التي يتعاظم خطرها كلما انفصلت عن إطارها التاريخي والعقلي" [25].

وفي هذا السياق، ناقش مالك بن نبي أيضاً مشكلة استعارة العالم الإسلامي للخبرة التربوية الأجنبية. فقد نبّه بادئ ذي بدء إلى أهمية إيجاد البيئة أو الشروط النفسية الضامنة لسلامة النقل وإلا فالأصل هو التوقّف عن ذلك لأنّ الضرر سيكون غالباً لا محالة. ولهذا، فهذه البيئة التي ينادي بها مالك ليس شرطاً بالنسبة للحلول الجاهزة التي نقبِسها من الخارج فقط بل بالنسبة لجميع الحلول التي نتصوّرها لعلاج ما يواجه مجتمعنا من مشكلات" [26] في أي مرحلة من مراحل تاريخنا. إنّ غير المتأمّل في هذا الكلام قد يسوقه الفهم الظاهري له إلى اعتقاد أنّ مالك بن نبي دعا بفكرته هذه إلى رفض التعامل مع الخبرة الأجنبية بل ومع الخبرة الإنسانية عموما والاستفادة منها. إنّ تتبع تحليله لهذه القضية يوضّح هذا الالتباس حيث يقول أنّه "ليس أوهن ولا أضعف من أن نرفض الاستنارة بتجارب الآخرين، والإفادة من جهودهم، ولكن بشرط أن نردّ الحل المستعار إلى أصول البلد المستعير"[27].

وهكذا، تتّضح نظرة مالك بن نبي إلى فكرة استعارة الخبرة الأجنبية وأصولها، ليس في مجال التربية فقط بل في مختلف مجالات النشاط البشري. ويكون بذلك قد وضع بعض المعالم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأساسية التي يمكن أن تهتدي بها محاولات النهوض لبناء مجتمعات ما بعد الاستقلال التي ما زالت مشاريعها في العالم الإسلامي معطّلة إلى أيّامنا هذه على الرغم من مرور عقود من الزمان على استرجاع السيادة الوطنية.

الهوامش :

[1] زكي الميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص. 59.

[2] نهضة: 21.

[3] نفسه: 68.

[4] نهضة: 17.

[5] فوزية بريون، مالك بن نبي: حياته ونظريته في الحضارة، 1988، ص. 8.

[6] محمد مصطفى براهمي، 2000.

[7] ميلاد: 100.

[8] نفسه: 94.

[9] محمد مصطفي براهمي، 2000.

[10] نهضة: 82.

[11] وجهة: 36.

[12] نفسه:37.

[13] نفسه: 38.

[14] وجهة: 38.

[15] وجهة: 38.

[16] نفسه: 36.

[17] ميلاد: 65.

[18] ميلاد: 31.

[19] وجهة: 32.

[20] ميلاد: 102.

[21] نفسه: 102.

[22] وجهة: 79.

[23] نفسه: 79.

[24] وجهة: 79-81.

[25] نفسه: 81.

[26] ميلاد: 104.

[27] نفسه: 104.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com